(٣٩)

التبشير والاستعمار

وآلام أخرى

العدد (١١٥) رجب (١٣٩٤هـ) يوليو (١٩٧٤م)

يكاد المراقبون والنقاد يجمعون على أن الأوروبيين والأمريكيين ليسوا مولعين بالتدين، ولا ميالين إلى التقوى، وأن صلتهم بالله لا تتجاوز الشكل إلى الموضوع، وأن احتفاءهم بالمناسبات الدينية يقوم على تحويل أيام الآحاد ومختلف الأعياد إلى فرص للاستجمام وشباك للهو والمرح بريئا أو غير بريء.

والأوروبيون والأمريكيون- إجمالاً- يجنون ثمرات تقدم علمي رائع رفَّه معايشهم، ونعم حضارتهم، وربما استطاع هذا التقدم أن يلطف مسالكهم ويهذب غرائزهم إلا أن بيئات كبيرة في كلتا القارتين لم يرفع العلم الإنساني مستواها إلا في الكلمات والملابس!

أما ما وراء ذلك فهناك القتل، والخطف، والاغتصاب، والفوضى الجنسية، والكبرياء العنصرية، وعبادة الحياة الدنيا، والتجهم أو الإنكار لما وراءها..

ومع هذا السلوك الهابط فإن الأوروبيين والأمريكيين يهتمون بالتبشير ويرصدون لرجاله وأغراضه أموالاً طائلة، ويتابعون نشاطه ونتاجه بيقظة!

ومع أن الحكومات في كلتا القارتين لا تبالي أن يؤمن أبناؤها أو يلحدوا.. إلا أنها تولي الدين في إفريقية وآسيا قدرًا ملحوظًا من رعايتها، وتتوسل به إلى تذليل الصعاب، وحطم الخصوم.

ولننظر إلى فلسطين في ظل الانتداب البريطاني لنرى آثار هذا الاتجاه في تحقيق الأغراض الاستعمارية بين سكان هذا القطر المحروب..

كان تسعة أعشار الفلسطينيين مسلمين عربًا فكيف يمكن تذويب عروبتهم وإسلامهم معًا؟ وكيف يمكن خلق الظروف التي تتمخض عن قيام «إسرائيل» كما وعدت بذلك بريطانيا؟

لن أتعرض هنا للأساليب الاقتصادية والعسكرية على شناعتها ووحشيتها، وإنما أتعرض للنواحي الدينية وحسب.

كان بفلسطين معهد لتخريج الدعاة المسلمين يسمى «الكلية الصلاحية» أمر الانتداب البريطاني بالإجهاز عليه عشية باشر الحكم في البلاد.

وقد نشرت إحدى الصحف تاريخًا موجزًا لهذه الكلية جاء به:

«كلية صلاح الدين الأيوبي».

كانت تقوم في الناحية الشمالية الشرقية على بعد عشرات الأمتار من الحرم الشريف في المكان المعروف بدير القديسة حنا، ويقال إن هذا المكان جعل مدرسة إسلامية قبل صلاح الدين الأيوبي.

ولكن اسمها قد التصق بصلاح الدين حينما جعل منها مدرسة للفقه الشافعي بطلب من فقهاء الشافعية، ومرَّ عليها زمن تقلبت فيه بين يد النصارى والمسلمين.

«حتى كانت سنة ١٩١٤م -١٣٣٣هـ، وقام على بلاد الشام القائد التركي جمال باشا، حيث أعادها مدرسة دينية إسلامية لإعداد مبشرين للعالم الإسلامي وبالأخص للهند والصين وسماها «كلية صلاح الدين الأيوبي» وعرفت بين الناس بالكلية الصلاحية كما درس بها علماء من مختلف البلاد في ذلك الوقت؛ من أمثال: محمد إسعاف النشاشيبي، وجودت الهاشمي، وعبدالقادر المغربي السوري الذي كان فيما بعد نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ثم عبدالعزيز جاويش، ورستم حيدر، وجميل النيال، وعبدالرحمن سلام... الخ، وكان شيخ الإسلام في الأستانة يحول

مرتبات هذه المدرسة من تركيا بوساطة متصرف القدس، وبدخول الجيش الإنجليزي القدس في ١٩١٧/١٢/٨م أعيدت هذه المدرسة إلى يد الآباء البيض الفرنسيين وهي اليوم مدرسة أكليريكية دينية للروم الكاثوليك».

والواقع أن هذا التاريخ مدخول، فالمدرسة كانت تقوم بتعليم الفقه الإسلامي ثم حولها الترك إلى كلية للدعاة تخدم الإسلام في الداخل والخارج.. فلما ملك الإنجليز الأمر حولوها إلى كلية لتخريج المبشرين المسيحيين، وسلموها إلى جماعة الآباء البيض الفرنسية وهي جماعة لها دور هائل في محاولة تنصير المغرب العربي أيام الاحتلال الفرنسي.

والتعبير بأنها «أعيدت» للفرنسيين يتمشى مع الفكر التبشيري الذي يرى أن آسيا الوسطى ومصر والشمال الإفريقي كله كانت مستعمرات رومانية، ويجب أن تعود كما كانت وقد بذل الاحتلال البريطاني لمصر جهودًا شاقة لإبعاد الأمة عن دينها، وعن المناسبات التاريخية التي تربطها به.

نشرت جريدة الأخبار تحت عنوان «احتج الإنجليز على الاحتفال بعيد الهجرة في إذاعة القاهرة منذ ٤٠ عامًا» قالت: احتفل العالم الإسلامي أمس بعيد الهجرة، وهو بداية العام الجديد منذ أمر عمر بن الخطاب بجعل الهجرة أساس التقويم الإسلامي. وقد احتفلت به الإذاعة المصرية لأول مرة سنة ١٩٣٤ ميلادي بقرار من مدحت عاصم أول مدير للإذاعة المصرية بعد أن أصبحت حكومية، وكانت من قبل تشرف عليها مؤسسات أهلية، وأمر المدير المصري أن يبدأ الاحتفال بصلاة الفجر.

وعد ذلك حدثا غريبا، وواجه المدير المصري معارضة شديدة من الانجليز المشرفين على الإذاعة!

وكانت الحجة المعلنة أن الإداريين والفنيين سوف يسهرون إلى الثانية صباحًا، ورد عليهم السيد مدحت عاصم بأن هؤلاء يسهرون في رأس السنة الميلادية حتى مطلع الفجر، وبعده إلى الصباح، وإذن فلا بد- بالقياس- من

الاحتفال بالسنة الهجرية وسكت المعترضون كارهين، فإن الاحتفال بالسنة الميلادية لذيذ أما الاحتفال بذكرى الهجرة فشيء ممجوج، أو لعله شيء رجعي!

المهم أن الإنجليز بعد أن ألغوا الكلية الصلاحية، واطمأنوا إلى أنه لن يكون للإسلام دعاة مرشدون في فلسطين رأوا أن يستجلبوا إلى الأرض المستباحة مللا أخرى تثير الفوضى الدينية فيها، وتبلبل الأفكار، وتكثر الظروف المهيئة لقيام إسرائيل.. وهم من قبل شجعوا البهائية، واحتضنوا طاغيتها الداهية عباس عبدالبهاء، ورفعوا منزلته ماديا وأدبيا، فجعلوا عكا كعبة البهائيين المبثوثين في بقاع شتى، وربطوهم بفلسطين روحيا، ووثقوا الصلات بين المحافل البهائية ودعاة الصهيونية، حتى تخدم إحداهما الأخرى ويتظاهران جميعا على الإسلام.

بيد أن ذلك لا يكفي فلا بد من استقدام القاديانية إلى فلسطين هي الأخرى كي تشارك في صنع الشتات الإسلامي وتمهد للوجود اليهودي.

وغلام أحمد منذ نشأ في الهند كان صوت سادته ومنفذ إرادتهم، وأذكر أني لما زرت أوغنده منذ عامين وجدت مسجدًا للقاديانية في أعظم ميادين العاصمة..

وشاء الله أن ينقرض هؤلاء السماسرة من أوغنده بعد أن انقطع الاستعمار الانجليزي منها.

لكنهم في فلسطين بقوا بعد أن تركت لليهود يبنون بها دولتهم التي رفع الإنجليز قواعدها.. والمجلة التي نقلنا عنها خبر الكلية الصلاحية البائسة تذكر النشاط القادياني داخل إسرائيل وكأنه ولد ونما بطريقة طبيعية، فهي تسوق القصة على هذا النحو:

«لقد كان الأستاذ المولوي جلال الدين شمس أول مبشر أوفد من قبل الخليفة الثاني للجماعة الأحمدية إلى بلدان الشرق الأوسط، وذلك في أواخر العشرينات من هذا القرن، وكان قد مهد لهذه الحملة حضرة المولوي

زين العابدين أستاذ تاريخ الأديان في كلية صلاح الدين الأيوبي في القدس، وقد بدأ عمله في دمشق الشام إلى أن اضطر إلى الانتقال لمدينة حيفا بفلسطين بسبب المعارضة الشديدة التي لقيها من علماء المسلمين هناك وبناء على طلب من الحكومة الفرنسية آنذاك.

وفي حيفا أسس جماعة وبشر بدعوة المهدي زمنا ما حتى تسنى له الاتصال بأهل قرية الكبابير الواقعة على جبل الكرمل والمجاورة لحيفا فقبل معظم سكانها الأحمدية وأقام بها مركزا تبشيريا سنة ١٩٢٩م وفي السنة التالية بنى المسجد الموجود حاليا ثم أضيفت إليه دار التبليغ، وأنشئت سنة ١٩٣٤م المطبعة الأحمدية وبدأ المركز يصدر مجلة «البشرى» وهي المجلة الأحمدية الوحيدة في بلاد الشرق الأوسط التي ما زالت تصدر بإسرائيل كما بوشر في الحال بفتح مدرسة ابتدائية لتعليم البنين والبنات وكذلك مدرسة ليلية لتعليم الكبار.

وقد تطورت المدرسة مع الزمن إلى أن أصبحت اليوم تضم ثمانية صفوف ابتدائية وروضة أطفال ولها بناية أنيقة وقاعة جميلة.

والمدرسة الأحمدية في الكبابير هي أيضًا المدرسة الإسلامية الوحيدة في البلاد التي تدار بصورة مستقلة عن جهاز التعليم الحكومي.

لقد كان المركز في الكبابير حتى قيام دولة إسرائيل يشرف على الأعمال التبشيرية الأحمدية في جميع بلدان الشرق الأوسط. وكانت الكبابير نقطة انتقال للمبشرين القاصدين من الشرق إلى الغرب أو العائدين من الغرب إلى الشرق.

لكن نشاطه انحصر بعد سنة ١٩٤٨م في إسرائيل وحدها..

وبعد حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧م امتد نشاط الجماعة إلى الضفة الغربية وإلى قطاع غزة. وللأحمدية اليوم عدد غير قليل من الأتباع في هذه المناطق.

ولا بد من التنويه إلى أن الجماعة الأحمدية في إسرائيل تمارس نشاطها

بحرية ولها مكانة محترمة لدى الأوساط الرسمية والشعبية في هذا البلد.

ويشرف على المركز اليوم الأستاذ بشير الدين عبيدالله تساعده هيئة إدارية ينتخبها أفراد الجماعة المحلية، وكذلك جمعية خدام الأحمدية للشباب ولجنة إماء الله للنساء يقومون كل يوم بواجباتهم نحو الجماعة تحت رعاية المبشر.

وفي الكبابير اليوم نحو ثمانمائة أحمدي يكونون الغالبية الساحقة من سكان القرية.. والمعروف أن كلتا النحلتين المبتدعتين، البهائية والقديانية تخدم الاستعمار العالمي وتشد أزره في ضرب الإسلام والعدوان على أمته، وهي لون آخر من التبشير يتفق في الغاية ويختلف في المنهج.

وليس كل مدد يصل إلى المبشرين من الشعوب الأوروبية والامريكية يتسم بالعدوان، ويتعمد مقدمه النيل منا والعدوان علينا.. ففي الدهماء عدد كبير من السذج والقاصرين يحسب أنه يرضي الله بما يبذل من مال..

وربما عذر حكومته وهي تباشر أحط وسائل الفتنة والسرقة للعقائد والمقدسات..

على أن الحكومات الاستعمارية عقدت صلحا دائما بين ضميرها وهواها، وأقنعت به نفسها ورعاياها، واستمرأت بمقتضاه تسخير الدين في تحقيق ما تسعى وراءه من أطماع..

والتبشير يتطلب أمرين متكاملين:

أولهما: العنوان الذي يستر خبيئته ويجعل له- في الظاهر- وظيفة أخرى ثقافية أو اجتماعية أو طبية.. إلخ، يمضي تحت شعارها إلى هدفه.

والثاني وهو في نظرنا شديد الخطورة: تكوين الظروف التي تشغل الشعوب بحوار مفتعل، أو قضايا وهمية، أو مسالك محيرة تتبدد فيها الطاقة، وتتشعب الآراء والأهواء.

إن هذه الظروف المصنوعة تشبه سحب الدخان التي تتحرك خلفها الجيوش الزاحفة، فلا يوضع أمامها عائق ولا يوقفها استعداد أو حذر.

وما أشك في أن التبشير العالمي، جند أقلاما كثيرة في الأمة العربية والإسلامية:

- تشن حربًا من الصمت مثلًا على كتب جيدة نافعة لتقدم أخرى ضارة تافهة..
- أو تطفئ شعلة من الحق في مكانها قبلما تتحول إلى سراج وهاج لو تركت للنمو الطبيعي.
- أو تخلق سرابًا من المناهج تحدو إليه ألوف الشباب ليلهثوا في طلبه ثم يعودوا بخفي حنين.
- أو تسوي بين اليقينيات والأوهام لتهدم مكانة الأولى وما ينبغي لها من قداسة أو تتدخل في الجبهة المناوئة لها كي تساعد على جعل قيادتها معتلة هزيلة.

المهم إحداث شتات وبعثرة في الوقت الذي يجدّ فيه رجال التبشير للقيام بدورهم كاملًا والميدان خال من الحراس، أو الحراس مشغولون فيه بغيرهم.

وقد وصل الذين يعملون في خدمة الأغراض التبشيرية إلى أعداد رهيبة، وننقل هنا ما ذكرته مجلة دعوة الحق التي تصدرها وزارة الأوقاف المغربية في عددها الأخير قالت: نشرت دائرة معارف الكنيسة (انسكلوبيديا(الأرقام التالية عن النشاط الكنسي:

(١) لدى الكنيسة الكاثوليكية ٢٥٠,٠٠٠ متفرغ في العالم (مبشرين) بينما يبلغ مجموع العاملين لخدمة الكنيسة الكاثوليكية ١,٦٠٠,٠٠٠ (مليون وستمائة ألف نسمة).

(٢) خلال ربع قرن من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٥٢ حول المبشرون ١٣,٠٠٠,٠٠٠ (ثلاثة عشر مليون) شخص إلى الكاثوليكية بمعدل نصف مليون سنويا.

(٣) لدى الكنيسة البروتستانتية ٤٣,٠٠٠ (ثلاثة وأربعون ألف) متفرغ (مبشرين) يديرون (١٦٠٠) ألفا وستمائة مركز ومستشفى في العالم لأغراض التبشير.

وقد زاد عدد البروتستانت في ربع القرن من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٥٢ حوالي ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ (ثلاثين مليونًا) والجدير بالغرابة أن هذا النشاط الباهر يتم في صمت، وأن صحفنا البارعة الذكية متواصية على كتمانه، زاهدة في الإشارة إليه.

وتلتحق بحرب التبشير حرية الإسكان والتهجير، وقد تمت- بتآمر عالمي- جريمة محو الوجود العربي في فلسطين، وتسليم الأرض إلى المستوطنين اليهود المجلوبين من أطراف الدنيا..

وقد ذكرنا في بعض كتبنا كيف أخذت إنجلترا جزيرة قبرص من تركيا، وكانت إسلامية خالصة طول ثلاثة عشر قرنا فاستقدمت إليها المستوطنين اليونانيين حتى كادت تذهب بصيغتها الأولى.. وتقوم الآن حركة لضمها إلى اليونان، التي لم تعرف هذه الجزيرة من بدء التاريخ!

وفي ظلام الغفلة والصمت تحاول عناصر معينة شراء أراض ذات قيمة تاريخية أو عسكرية ثم تحشد أتباعها فيها ليظهروا بغتة بمطالب شاذة يحميها القانون! ولا أدري إلى متى يبقى العرب والمسلمون ذاهلين عن مصيرهم مع تلك المؤامرات المدروسة التي تفاجئهم بين حين وحين..

ولا أحس غضاضة من التنبيه إلى قضية تحديد النسل.. إن أعداء الإسلام يعرفون النتائج المادية والمعنوية التي تترتب على الكثرة العددية للأمة الإسلامية، ومن ثم يجتهدون في إقناع المسلمين- وحدهم- بجدوى قلة النسل، وأقول مؤكدًا- وحدهم- لأن رؤساء الأديان الأخرى أجمعوا أمرهم على تكثير نسلهم..

ومن المفيد أن أذكر أن المسلمين في الأقطار الشيوعية بعد ذبول معروف الأسباب أخذوا يكثرون.

لعل هذه الكثرة مصداق المثل السائر «بقية السيف أنمى»!

وقد قرأت دراسة علمية دقيقة نشرتها مجلة «دعوة الحق» في هذا الموضوع ختمته بهذه الحقائق «بعد انحسار دام نصف قرن على الأقل أخذ

المسلمون يتزايدون تزايدًا طبيعيا كبيرًا في كل المناطق التي درسناها، وبهذا زادت نسبتهم في السنين الأخيرة في البلاد الشيوعية الأربع (الاتحاد السوفيتي، يوغسلافيا، ألبانيا، بلغاريا)، التي سبقت دراستها..

- فمن بين كل ألف سوفيتي كان ١١٣ مسلمًا سنة ١٩٣٩ فصار ١٣٦ مسلمًا سنة ١٩٧١.
- ومن بين كل ألف يوغسلافي كان ١١٢ مسلمًا سنة ١٩٣١ فصار ١٥١ مسلمًا سنة ١٩٧١.
- ومن بين كل ألف ألباني كان ٦٨٦ مسلمًا سنة ١٩٣٠ فصار ٧٠٧ مسلمين سنة ١٩٦٩.
- ومن بين كل ألف بلغاري كان ١٣٣ مسلمًا سنة ١٩٤٩ فصار ١٧٠ مسلمًا سنة ١٩٧١.

وهذا هو نفس الوضع في معظم بلاد العالم حيث يتزايد المسلمون أكثر من غيرهم وهذا يكشف هدف الدعايات الخبيثة لتحديد النسل بين المسلمين.

فواجب كل مسلم من جهة، الوقوف ضد هذه الدعايات ومن جهة أخرى العمل على تحسين وضع المسلمين المادي والمعنوي.

ونحن نضع بين أيدي قرائنا هذه المعلومات ليدركوا الكثير مما يُغَيّب عمدا عن العيون.